

## ١٣ - سورة الرعد

### مدنية وآياتها ثلاث وأربعون

#### بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿الرَّحْمَنُ يَلِكُ الْكُتُبِ وَالَّذِي أُنْزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ الْحَقُّ وَلَكِنَّ الْكَافِرَ لَأُيْمُوتُونَ ۝﴾

أما الكلام على الحروف المقطعة في أوائل السور فقد تقدم في أول سورة البقرة، وقدمنا أن كل سورة ابتدئت بهذه الحروف ففيها الانتصار للقرآن، وتبيان أن نزوله من عند الله حق لا شك فيه ولا مرية ولا ريب، ولهذا قال: ﴿تلك آيات الكتاب﴾ أي هذه آيات الكتاب وهو القرآن، ثم عطف على ذلك عطف صفات فقال: ﴿والذي أنزل إليك﴾ أي يا محمد ﴿من ربك الحق﴾، وقوله: ﴿ولكن أكثر الناس لا يؤمنون﴾ كقوله: ﴿وما أكثر الناس ولو حرصت بمؤمنين﴾ أي مع هذا البيان والجلال والوضوح لا يؤمن أكثرهم لما فيهم من الشقاق، والعناد، والنفاق.

﴿اللَّهُ الَّذِي رَفَعَ السَّمَوَاتِ بِغَيْرِ عَمَدٍ تَرَوْنَهَا ثُمَّ أَسْتَوَى عَلَى الْعَرْشِ وَسَخَّرَ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ لِيَجْزِيَ لَأَجَلٍ مُّسَمًّى يَلَيُّكَ الْآنَ الْفَصْلُ ۝﴾

يخبر تعالى عن كمال قدرته وعظيم سلطانه، أنه الذي بإذنه وأمره رفع السماوات بغير عمد، بل بإذنه وأمره وتسخيرها ورفعها عن الأرض بعداً لا تنال ولا يدرك مداها، فالسماوات الدنيا محيطة بجميع الأرض وما حولها من الماء والهواء، من جميع نواحيها وجہاتها وأرجائها، مرتفعة عليها من كل جانب على السواء، وبعد ما بينها وبين الأرض من كل ناحية مسيرة خمسمائة عام، ثم السماء الثانية محيطة بالسماوات الدنيا وما حوت، وهكذا إلى السابعة، وفي الحديث: أما السموات السبع وما فيهن وما بينهن في الكرسي إلا كحلقة ملقاة بأرض فلاة، والكرسي في العرش المجيد كذلك الحلقة في تلك الفلاة. وفي رواية: العرش لا يقدر قدره إلا الله عز وجل. وجاء عن بعض السلف: أن بعد ما بين العرش إلى الأرض مسيرة خمسين ألف سنة، وبعد ما بين قطريه مسيرة خمسين ألف سنة، وهو من ياقوتة حمراء، وقوله: ﴿بغير عمد ترونها﴾ السماء على الأرض مثل القبة، يعني بلا عمد، وهذا هو اللائق بالسياق، والظاهر من قوله تعالى: ﴿ويسمك السماء أن تقع على الأرض إلا بإذنه﴾ فعلى هذا يكون قوله: ﴿ترونها﴾ تأكيداً لنفي ذلك، أي هي مرفوعة بغير عمد كما ترونها، وهذا هو الأكمل في القدرة<sup>(١)</sup>، وقوله تعالى: ﴿ثم استوى على العرش﴾ تقدم تفسيره في سورة الأعراف، وأنه يمر كما جاء من غير تكيف ولا تشبيه ولا تعطيل ولا تمثيل تعالى الله علواً كبيراً، وقوله: ﴿وسخر الشمس والقمر كل يجري لأجل مسمى﴾ قيل: المراد أنهما يجريان إلى انقطاعهما بقيام الساعة، كقوله تعالى: ﴿والشمس تجري لمستقر لها﴾، وقيل: المراد إلى مستقرهما وهو تحت العرش، وذكر الشمس والقمر لأنهما أظهر الكواكب السيارة السبعة التي هي أشرف وأعظم من الثوابت، فإذا كان قد سخر هذه فلأن يدخل في التسخير سائر الكواكب بطريق الأولى والأخرى، كما نبه بقوله تعالى: ﴿لا تسجدوا للشمس ولا للقمر واسجدوا لله الذي خلقهن إن كنتم إياه تعبدون﴾، مع أنه قد صرح بذلك بقوله: ﴿والشمس والقمر والنجوم مسخرات بأمره ألا له الخلق والأمر تبارك الله رب العالمين﴾، وقوله: ﴿يفصل الآيات لعلكم تلبقوا﴾

(١) وزوي عن ابن عباس ومجاهد والحسن أنهم قالوا: لها عمد ولكن لا ترى فتكون جملة (ترونها) صفة (لا عمد) أي بغير عمد مرية، وهذا التأويل خلاف الظاهر المتبادر وقد أشار ابن كثير رحمه الله لضعف هذا القول.

توقنون ﴿أي يوضح الآيات والدلالات الدالة على أنه لا إله إلا هو وأنه يعيد الخلق إذا شاء كما بدأه .

﴿وَهُوَ الَّذِي مَدَّ الْأَرْضَ وَجَعَلَ فِيهَا رَوَاسِيَ وَأَنْهَارًا وَمِنْ كُلِّ الثَّمَرَاتِ جَعَلَ فِيهَا رَوْحَيْنِ ابْتَيْنَ يَقْشَى الْبَلَدَ الْبَارِدَ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴿١٣﴾ وَفِي الْأَرْضِ قُطْعٌ مِّنْجَبُوتٍ وَجَنَّتْ مِنْ أَحْشَاءِ وَرَزَقَ وَتَقِيلُ صِنُونًا وَغَيْرُ صِنُونٍ يُسْقَى بِعَمَلٍ وَاجِدٍ وَتَفْقِئُ بِعَمَلٍ عَلَى تَحْسٍ فِي الْأَكْلِ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ﴿١٤﴾﴾ .

لما ذكر تعالى العالم العلوي، شرع في ذكر قدرته وحكمته وإحكامه للعالم السفلي، فقال: ﴿وهو الذي مَدَّ الأرض﴾ أي جعلها متسعة ممتدة في الطول والعرض، وأرأسها بجبال راسيات شامخات، وأجرى فيها الأنهار والجداول والعيون، ليسقى ما جعل فيها من الثمرات المختلفة الألوان والأشكال والطعوم ﴿ومن كل الثمرات جعل فيها زوجين اثنين﴾ أي من كل شكل صنفان ﴿يقشَى الليل والنهار﴾ أي جعل كلا منهما يطلب الآخر طلباً حثيثاً، فإذا ذهب هذا غشيه هذا، وإذا انقضى هذا جاء الآخر فيتصرف أيضاً في الزمان كما يتصرف في المكان والسكان ﴿إن في ذلك لآيات لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ﴾ أي في آلاء الله وحكمه ودلائله، وقوله: ﴿وفي الأرض قطع متجاورات﴾ أي أراض يجاور بعضها بعضاً، مع أن هذه طيبة تثبت ما ينفع الناس وهذه سبخة مالحة لا تثبت شيئاً ويدخل في هذه الآية اختلاف ألوان بقاع الأرض، فهذه تربة حمراء، وهذه بيضاء، وهذه صفراء، وهذه سوداء، وهذه محجرة، وهذه سهلة، وهذه سميكة، وهذه رقيقة، والكل متجاورات، فهذا كله مما يدل على الفاعل المختار لا إله إلا هو، وقوله: ﴿وجنات من أعناب وزرع ونخيل﴾ يحتمل أن تكون عاطفة على جنات، فيكون ﴿وزرع ونخيل﴾ مرفوعين، ويحتمل أن يكون معطوفاً على أعناب فيكون مجروراً، ولهذا قرأ بكل منهما طائفة من الأئمة، وقوله: ﴿صنوان وغير صنوان﴾ الصنوان هو الأصول المجتمعة في منبت واحد كالرمان والتين وبعض النخيل ونحو ذلك، وغير الصنوان ما كان على أصل واحد كسائر الأشجار، وفي «الصحیح» أن رسول الله ﷺ قال لعمر: «أما شمرت أن هم الرجل صنو أبيه»، وقال سفيان الثوري عن البراء رضي الله عنه: الصنوان هي النخلات في أصل واحد، وغير الصنوان المتفرقات، وقوله: ﴿يسقى بماء واحد ونفضل بعضها على بعض في الأكل﴾ قال الأعشى، عن أبي هريرة عن النبي ﷺ: «ونفضل بعضها على بعض في الأكل» قال: «الدقل والفارسي والحلو والحامض»<sup>(١)</sup>، أي هذا الاختلاف في أجناس الثمرات والزرع في أشكالها وألوانها وطعومها وروائحها وأوراقها وأزهارها، فهذا في غاية الحلاوة، وهذا في غاية الحموضة، وهذا في غاية المرارة، وهذا عفص، وهذا عذب، وهذا أصفر، وهذا أحمر، وهذا أبيض، وكذلك الزهورات مع أنها كلها تستمد من طبيعة واحدة وهو الماء، مع هذا الاختلاف الكثير الذي لا ينحصر ولا ينضب، ففي ذلك آيات لمن كان واعياً، وهذا من أعظم الدلالات على الفاعل المختار الذي بقدرته قاوت بين الأشياء وخلقها على ما يريد، ولهذا قال تعالى: ﴿إن في ذلك لآيات لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ﴾ .

﴿وَإِنْ تَعَجَّبْتَ فَلَقَدْ لَمَّا إِذَا كُنَّا نَرَاهُ نَآ لِي خَلْقِي جَدِيدٌ أَوَّلِيكَ أَوَّلِيكَ كَفَرُوا بِرَبِّهِمْ وَأَوَّلِيكَ الْأَغْنَلُ وَ أَعْنَاهُمْ وَأَوَّلِيكَ أَحْسَنُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ ﴿١٥﴾﴾ .

يقول تعالى لرسوله محمد ﷺ: ﴿وإن تعجب﴾ من تكذيب هؤلاء المشركين بالمعاد، مع ما يشاهدونه من آيات الله سبحانه ودلائله في خلقه، ومع ما يعترفون به من أنه ابتداء خلق الأشياء بعد أن لم تكن شيئاً مذكوراً، ثم هم بعد هذا يكذبون في أنه سيعيد العالم خلقاً جديداً، فالتعجب من قولهم: ﴿أئذا كنا تراباً أئنا لفي خلق جديد﴾ . وقد علم كل عالم وعاقل أن خلق السموات والأرض أكبر من خلق الناس، وأن من بدأ الخلق فالإعادة عليه أسهل، كما قال تعالى: ﴿أو لم يروا أن الله الذي خلق السموات والأرض ولم يمي

بخلقهن بقادر على أن يحيي الموتى بلى إنه على كل شيء قدير، ثم نعت المكذبين بهذا، فقال: ﴿أولئك الذين كفروا بربهم وأولئك الأغلال في أعناقهم﴾ أي يسحبون بها في النار، ﴿وأولئك أصحاب النار هم فيها خالدون﴾ أي ما تكون فيها أبداً لا يحولون عنها ولا يزولون.

﴿وَسَتَجِدُنَا بِالْآيَةِ قَبْلَ الْحَسَةِ وَقَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِهِمُ الْمَثَلَتُ وَإِنَّ رَبَّكَ لَذُو مَقْفَرٍ لِلنَّاسِ عَلَى ظَلْمِهِمْ وَإِنَّ رَبَّكَ لَشَدِيدُ الْعِقَابِ﴾.

يقول تعالى: ﴿وستعجلونك﴾ أي هؤلاء المكذبون، ﴿بالآية قبل الحسنة﴾ أي بالعقوبة، كما أخبر عنهم في قوله: ﴿وستعجلونك بالعذاب﴾ الآية، وقال تعالى: ﴿سأل سائل بعذاب واقع﴾، وقال: ﴿ستعجل بها الذين لا يؤمنون بها﴾، وقال: ﴿وقالوا ربنا عجل لنا قسطاً﴾ الآية، أي عقابنا وحسابنا، فكانوا من شدة تكذيبهم وعنادهم وكفرهم، يطلبون أن يأتيهم بعذاب الله، قال الله تعالى: ﴿وقد خلت من قبلهم المثلثات﴾ أي قد أوفعنا نعمنا بالأسم الخالية، وجعلناهم عرة وعظة لمن انتعظ بهم؛ ثم أخبر تعالى أنه لولا حلمه وعفوه لعاجلهم بالعقوبة كما قال: ﴿ولو يؤاخذ الله الناس بما كسبوا ما ترك على ظهرها من دابة﴾، وقال تعالى في هذه الآية الكريمة: ﴿وإن ربك لذو مغفرة للناس على ظلمهم﴾ أي إنه تعالى ذو عفو وصفح وستر للناس، مع أنهم يظلمون ويخطئون بالليل والنهار، ثم قرن هذا الحكم بأنه شديد العقاب ليعتدل الرجاء والخوف، كما قال تعالى: ﴿فإن كذبوك فقل ربكم ذو رحمة واسعة ولا يرد بأسه عن القوم المجرمين﴾، وقال: ﴿إن ربك لسريع العقاب وإنه لغفور رحيم﴾ إلى أمثال ذلك من الآيات التي تجمع الرجاء والخوف، عن سعيد بن المسيب قال: لما نزلت هذه الآية: ﴿وإن ربك لذو مغفرة للناس على ظلمهم﴾ قال رسول الله ﷺ: «لولا عفو الله وتجاوزة ما هنا أحداً العيش، ولولا وعيده وعقابه لاتكل كل أحد» (١).

﴿وَيَقُولُ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوْلَا نُزِّلَ عَلَيْهِ آيَةٌ مِنْ رَبِّهِ إِنَّمَا أَنْتَ شَيْذُورٌ وَلِكُلِّ قَوْمٍ هَادٍ﴾.

يقول تعالى إخباراً عن المشركين إنهم يقولون كفراً وعناداً: لولا يأتينا بآية من ربه كما أرسل الأولون، كما نعتوا عليه أن يجعل لهم الصفا ذهباً، وأن يزيح عنهم الجبال ويجعل مكانها مروجاً وأنهاراً، قال تعالى: ﴿وما منعنا أن نرسل بالآيات إلا أن كذب بها الأولون﴾ الآية، قال الله تعالى: ﴿إنما أنت مشر﴾ أي إنما عليك أن تبلغ رسالة الله التي أمرك بها، و﴿ليس عليك هداهم ولكن الله يهدي من يشاء﴾، وقوله: ﴿ولكل قوم هاد﴾ قال ابن عباس: أي ولكل قوم داع، وقال العوفي عن ابن عباس في الآية: أنت يا محمد منذر وأنا هادي كل قوم (٢). عن مجاهد ﴿ولكل قوم هاد﴾ أي نبي كقوله: ﴿وإن من أمة إلا خلا فيها نذير﴾، وقال يحيى بن رافع: ﴿ولكل قوم هاد﴾ أي قائد، وعن عكرمة: ﴿ولكل قوم هاد﴾: هو محمد ﷺ، وقال مالك ﴿ولكل قوم هاد﴾: يدعوهم إلى الله عز وجل.

﴿إِنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا غَمِلَ كُلُّ أُنْثَىٰ وَمَا يَغِيصُ الْأَرْحَامُ وَمَا تَزِدُّهُ رَسُولٌ شَيْئاً عِنْدَهُ بِمَقْدَارٍ﴾ عَنِ النَّبِيِّ ﷺ رَأَيْتُهُ الْكَبِيرَ الْمَتَعَالِ.

يخبر تعالى عن تمام علمه الذي لا يخفى عليه شيء، وأنه محيط بما تحمله الحوامل من كل الإناث، كما قال تعالى: ﴿ويعلم ما في الأرحام﴾ أي ما حملت من ذكر أو أنثى، أو حسن أو قبيح، أو شقي أو سعيد، أو طويل العمر أو قصيره، كقوله تعالى: ﴿هو أعلم بكم إذ أنشأكم من الأرض وإذ أنتم أجنت﴾ الآية، وقال تعالى: ﴿يخلقكم في بطون أمهاتكم خلقاً من بعد خلق في ظلمات ثلاث﴾ أي خلقكم طوراً من بعد طور، كما قال تعالى: ﴿ولقد خلقنا الإنسان من سلالة من طين﴾ ثم جعلناه نطفة في قرار مكين. وفي

(١) أخرجه ابن أبي حاتم.

(٢) وكذا قال الضحاك وسعيد بن جبير وغير واحد.

«الصحيحين» عن ابن مسعود قال: قال رسول الله ﷺ: «إن خلق أحدكم يجتمع في بطن أمه أربعين يوماً، ثم يكون علقة مثل ذلك، ثم يكون مضغة مثل ذلك، ثم يبعث الله إليه ملكاً فيؤمر بأربع كلمات، بكتب رزقه وعمره وعمله وشقي أو سعيد»، وفي الحديث الآخر: «فيقول الملك أي رب! أذكر أم أنسى؟ أشقي أم سعيد؟ فما الرزق؟ فما الأجل؟ فيقول الله ويكتب الملك».

وقوله تعالى: «وما تغيض الأرحام وما تزداد»، قال البخاري، عن ابن عمر، أن رسول الله ﷺ قال: «مفاتيح الغيب خمس لا يعلمهن إلا الله: لا يعلم ما في غد إلا الله، ولا يعلم ما تغيض الأرحام إلا الله، ولا يعلم متى يأتي المطر أحد إلا الله، ولا تدري نفس بأي أرض تموت، ولا يعلم متى تقوم الساعة إلا الله»، وقال ابن عباس: «وما تغيض الأرحام» يعني السقط «وما تزداد»، يقول: ما زادت الرحم في الحمل على ما غاضت حتى ولدته تماماً، وذلك أن من النساء من تحمل عشرة أشهر، ومن تحمل تسعة أشهر، ومنهن من تزيد في الحمل، ومنهن من تنقص، فلذلك الغيض والزيادة التي ذكر الله تعالى وكل ذلك يعلمه تعالى، وعنه: ما نقصت من تسعة وما زاد عليها، وقال الضحاك: وضعتني أمي وقد حملتني في بطنها سنتين، وولدتني وقد نبئت ثنتي، وقال ابن جريج، عن عائشة قالت: لا يكون الحمل أكثر من سنتين قدر ما يتحرك ظل مغزل، وقال مجاهد: «وما تغيض الأرحام وما تزداد» قال: ما ترى من الدم في حملها وما تزداد على تسعة أشهر<sup>(١)</sup>، وقال مجاهد أيضاً «وما تغيض الأرحام»: إراقة الدم حتى يخس الولد، «وما تزداد» إن لم تهرق الدم ثم الولد وعظم، وقال مكحول: الجنين في بطن أمه لا يحزن ولا يغم، وإنما يأتيه رزقه في بطن أمه من دم حيضتها فمن ثم لا تحيض الحامل، فإذا وقع إلى الأرض استهل، واستهالته استكراه لمكانه، فإذا قطعت سرتة حول الله رزقه إلى نديي أمه، حتى لا يحزن ولا يطلب ولا يغم، ثم يصير طفلاً يتناول الشيء بكفه فيأكله، فإذا هو بلغ قال: هو الموت أو القتل أنى لي بالرزق؟ فيقول مكحول: يا ويحك، غذاك وأنت في بطن أمك، وأنت طفل صغير، حتى إذا اشتدت وعقلت قلت: هو الموت أو القتل أنى لي بالرزق؟ ثم قرأ مكحول: «والله يعلم ما تحمل كل أنثى» الآية، وقال قتادة: «وكل شيء عنده بمقدار» أي بأجل، حفظ أرزاق خلقه وآجالهم وجعل لذلك أجلاً معلوماً، وفي الحديث الصحيح: أن إحدى بنات النبي ﷺ بعثت إليه أن ابناً لها في الموت، وأنها تحب أن يحضره، فبعث إليها يقول: «إن الله ما أخذ وله ما أعطى، وكل شيء عنده بأجل مسمى، فمروها فلتصبر ولتحتسب» الحديث بتمامه. وقوله: «عالم الغيب والشهادة» أي يعلم كل شيء مما يشاهده العباد ومما يغيب عنهم ولا يخفى عليه منه شيء. «الكبير» الذي هو أكبر من كل شيء. «المتعال» أي على كل شيء، «قد أحاط بكل شيء علماً» وقهر كل شيء فنخضعت له الرقاب ودان له العباد طوعاً وكرهاً.

﴿سَوَاءٌ يَنْكَرُ تَنْ أَسْرَ الْقَوْلِ وَمَنْ جَهَرَ بِهِ وَمَنْ هُوَ مُسْتَخْفٍ بِاللَّيْلِ وَسَارِبٌ بِالنَّهَارِ﴾ (١٣) ﴿لَمْ تُمَيِّزْ بَيْنَ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِ يَخْفَوْنَ﴾ بِمَنْفُوتِهِ مِنْ أَمْرِ اللَّهِ إِنَّكَ اللَّهُ لَا يَمَيِّزُ مَا يَقُولُ حَتَّى يَفْهَرُوا مَا بَالْفُسَيْمِ وَإِذَا أَرَادَ اللَّهُ يَقُولُ سَوَاءً فَلَا مَرَّةَ لَمْ وَمَا لَهْدٍ مِنْ دُونِهِ مِنْ وَالِي (١٤) ﴿

يخبر تعالى عن إحاطة علمه بجميع خلقه، وأنه سواء متهم من أسر قوله أو جهر به، فإنه يسمعه لا يخفى عليه شيء كقوله: «وإن تجهر بالقول فإنه يعلم السر وأخفى»، وقال: «ويعلم ما تخفون وما تعلنون»، وقوله: «ومن هو مستخف بالليل» أي مختف في فعر بيته في ظلام الليل، «وسارب بالنهار» أي ظاهر ماش في بياض النهار وضياؤه، فإن كلاهما في علم الله على السواء، كقوله تعالى: «ألا حين يستفشون ثيابهم» الآية، وقوله تعالى: «وما تكون في شأن وما تملو منه من قرآن ولا تعملون من عمل إلا كنا عليكم

(١) وبه قال الحسن البصري وقاتة والضحاك.

شهوداً إذ تفيضون فيه»، وقوله: ﴿فَإِنَّ مَعَ كُلِّ مَلَكٍ مِّنْهُ مَلَائِكَةٌ يَحْفَظُونَ مِنْ أَمْرِ اللَّهِ﴾ أي للعبد ملائكة يتعاقبون عليه، حرس بالليل، وحرس بالنهار، يحفظونه من الأسواء والحادثات، كما يتعاقب ملائكة آخرون لحفظ الأعمال من خير أو شر، ملائكة بالليل وملائكة بالنهار، فائتان عن اليمين والشمال، يكتبان الأعمال صاحب اليمين يكتب الحسنات، وصاحب الشمال يكتب السيئات، وملكان آخران يحفظانه ويحرسانه، واحد من ورائه وآخر من قدامه، فهو بين أربعة أملاك بالنهار، وأربعة آخرين بالليل بدلاً، حافظان وكاتبان، كما جاء في «الصحيح»: «يتعاقبون فيكم ملائكة بالليل وملائكة بالنهار» الحديث، وفي الحديث الآخر: «إن معكم من لا يفارقكم إلا عند الخلاء وعند الجماع فاستحيوهم وأكرمهم»، وقال ابن عباس: «يحفظونه من أمر الله» قال: ملائكة يحفظونه من بين يديه ومن خلفه، فإذا جاء قدر الله خلوا عنه، وقال مجاهد: ما من عبد إلا له ملك موكل يحفظه في نومه ويقظته من الجن والإنس والهوام، فما منها شيء يأتيه يريد له إلا قال له الملك: وراك إلا شيء أذن الله فيه فيصيبه. وقال الإمام أحمد رحمه الله، عن عبد الله قال: قال رسول الله ﷺ: «ما منكم من أحد إلا وقد وكل به قرينه من الجن، وقرينه من الملائكة» قالوا: وإياك يا رسول الله؟ قال: «إياي»، ولكن الله أعانني عليه فلا يأمرني إلا بخير»<sup>(١)</sup>. وقوله: ﴿يَحْفَظُونَهُ مِنْ أَمْرِ اللَّهِ﴾ قيل: المراد حفظهم له من أمر الله، قاله ابن عباس، وإليه ذهب مجاهد وسعيد بن جبير، وقال قتادة «يحفظونه من أمر الله» يحفظونه بأمر الله، وقال كعب الأحبار: لو تجلى لابن آدم كل سهل وكل حزن لرأى كل شيء من ذلك شيئاً يقبه، ولولا أن الله وكل بكم ملائكة يذوبون عنكم في مطعمكم ومشربكم وعوراتكم إذا لُحِظْتُمْ، قال أبو أمامة: ما من آدمي إلا ومعه ملك يذود عنه حتى يسلمه للذي قدر له. وقال أبو مجلز: جاء رجل إلى علي رضي الله عنه وهو يصلي، فقال: احترس، فإن ناساً يريدون قتلك، فقال: إن مع كل رجل ملكين يحفظانه مما لم يقدر، فإذا جاء القدر خليا بينه وبينه، إن الأجل جنة حصينة. وقال بعضهم: ﴿يَحْفَظُونَهُ مِنْ أَمْرِ اللَّهِ﴾ بأمر الله، كما جاء في الحديث أنهم قالوا: يا رسول الله أرأيت وقي نسترقى بها، هل ترد من قدر الله شيئاً؟ فقال: «هي من قدر الله»، وقال ابن أبي حاتم: «أوحى الله إلى نبي من أنبياء بني إسرائيل أن قل لقومك: إنه ليس من أهل قرية ولا أهل بيت يكونون على طاعة الله فيتحولون منها إلى معصية الله إلا حوّل الله عنهم ما يحبون إلى ما يكرهون»، ثم قال: إن تصديق ذلك في كتاب الله: ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَغَيِّرُ مَا بَقِيَ حَتَّى يَبْدُؤَ مَا بَأْنَفُسِهِمْ﴾<sup>(٢)</sup>.

﴿مَنْ أَلْقَى بِرَيْسِكُمْ الْبَرْقَ خَوْفًا وَطَمَعًا وَمِمَّا رُبِنُوا السَّحَابَ الثَّقَالَ ۖ وَيَسْمِعُ الرَّعْدَ يَحْتَدُونَ ۚ وَالْمَلَكُ مِنْ خِيفَتِهِ ۚ وَيُرْسِلُ الصَّوَاعِقَ فَيُصِيبُ بِهَا مَنْ يَشَاءُ وَهُمْ يُجَادِلُونَ فِي اللَّهِ وَهُوَ شَدِيدُ الْحِسَابِ ۖ﴾<sup>(٣)</sup>.

بخير تعالى أنه هو الذي يسخر البرق، وهو ما يرى من النور اللامع ساطعاً من خلل السحاب، ﴿خَوْفًا وَطَمَعًا﴾، قال قتادة: خوفاً للمسافر يخاف أذاه ومشقته، وطمعاً للمقيم يرجو بركته ومنفعته ويطمع في رزق الله. ﴿وَيُنْشِئُ السَّحَابَ الثَّقَالَ﴾ أي ويخلقها منشاءً جديدة، وهي لكثرة ماؤها ثقيلة قريبة إلى الأرض، قال مجاهد: السحاب الثقال: الذي فيه الماء، ﴿وَيَسْمِعُ الرَّعْدَ بِحَمْدِهِ﴾، كقوله: ﴿إِنْ مِنْ شَيْءٍ إِلَّا يَسْمِعُ بِحَمْدِهِ﴾، وكان رسول الله ﷺ إذا سمع الرعد والصواعق قال: «اللهم لا تقتلنا بغضبك، ولا تهلكنا بعذابك، وعاقبنا قبل ذلك»<sup>(٤)</sup>. وعن أبي هريرة رفعه، أنه كان إذا سمع الرعد قال: «سبحان من يسبح الرعد بحمده»، وعن عبد الله بن الزبير أنه كان إذا سمع الرعد ترك الحديث، وقال: سبحان الذي يسبح الرعد

(١) رواه مسلم وأحمد عن عبد الله بن مسعود.

(٢) أخرجه ابن أبي حاتم عن إبراهيم النخعي موقوفاً، وقد ورد نحوه في حديث مرفوع رواه ابن أبي شيبة.

(٣) رواه الترمذي والنسائي والحاكم وأحمد، وأخرجه البخاري في كتاب الأدب.



يده، وهو لا يناله أبداً يده، فكيف يبلغ فاه؟ وقال مجاهد: ﴿كباسط كفيه﴾ يدعو الماء بلسانه ويشير إليه فلا يأتيه أبداً، وقيل: المراد كقابض يده على الماء، فإنه لا يحكم منه على شيء، كما قال الشاعر:

فأصبحت مما كان بيني وبينها من الود مثل القابض الماء باليد

ومعنى هذا الكلام أن الذي يسط يده إلى الماء إما قابضاً، وإما متناولاً له من يده، كما أنه لا ينتفع بالماء الذي لم يصل إلى فيه الذي جعله محلاً للشرب، فكذلك هؤلاء المشركون الذين يعبدون مع الله إلهاً غيره لا يتفعون بهم أبداً في الدنيا ولا في الآخرة، ولهذا قال: ﴿وما دهاء الكافرين إلا في ضلال﴾.

﴿وَمَنْ يَسْجُدْ مِنْ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ طَوْعاً وَكَرْهاً وظَلَمَ بِالْغَدْرِ وَالْأَصَالِ﴾ (١٥).

يخبر تعالى عن عظمته وسلطانه الذي فهر كل شيء ودان له كل شيء. ولهذا يسجد له كل شيء طوعاً من المؤمنين وكرهاً من الكافرين، ﴿وظلالهم بالغدو﴾ أي البكور، ﴿والأصال﴾ وهو آخر النهار، كقوله تعالى: ﴿أو لم يروا إلى ما خلق الله من شيء يتغيرون ظلاله﴾ الآية.

﴿قُلْ مَنْ رَبُّ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ قُلْ اللَّهُ قُلْ أَتَأْتَدُّونَ مِنْ دُونِهِ أُولَئِكَ لَا يَتْلُونَ الْآيَاتِ فَقَدْ لَا تَعْلَمُونَ قُلْ هَلْ يَسْتَوِي الْأَعْمَى وَالْبَصِيرُ أَمْ هَلْ تَسْتَوِي الظُّلُمَاتُ وَالنُّورُ أَمْ جَعَلُوا لِلَّهِ شُرَكَاءَ خَلَقُوا كَخَلْقِهِ فَتَشَابَهَ لِمَالِكٍ عَلَيْهِمْ قُلْ اللَّهُ خَلَقَ كُلَّ شَيْءٍ وَهُوَ الرَّزَّاقُ الْغَنِيُّ﴾ (١٦).

يقرر تعالى أنه لا إله إلا هو لأنهم معترفون بأنه هو الذي خلق السماوات والأرض وهو ربها ومديرها، وهم مع هذا قد اتخذوا من دونه أولياء يعبدونهم، وأولئك الآلهة لا تملك لأنفسها ولا لعبادها بطريق الأولى نفعاً ولا ضرراً، أي لا تحصل لهم منفعة ولا تدفع عنهم مضرة، فهل يستوي من عبد هذه الآلهة مع الله ومن عبد الله وحده لا شريك له فهر على نور من ربه؟ ولهذا قال: ﴿قُلْ هَلْ يَسْتَوِي الْأَعْمَى وَالْبَصِيرُ أَمْ هَلْ تَسْتَوِي الظُّلُمَاتُ وَالنُّورُ أَمْ جَعَلُوا لِلَّهِ شُرَكَاءَ خَلَقُوا كَخَلْقِهِ فَتَشَابَهَ لِمَالِكٍ عَلَيْهِمْ﴾ أي أجعل هؤلاء المشركون مع الله آلهة تناظر الرب وتمائله في الخلق، فخلقوا كخلقه فتشابه الخلق عليهم، فلا يدرون أنها مخلوقة من مخلوق غيره، أي ليس الأمر كذلك، فإنه لا يشابه شيء ولا يماثله، ولا ند له ولا عدل، ولا وزير له ولا ولد ولا صاحبة، تعالى الله عن ذلك علواً كبيراً، فأنكر تعالى عليهم ذلك، حيث اعتقدوا ذلك وهو تعالى لا يشفع أحد عنده إلا بإذنه، ﴿ولا تنفع الشفاعة عنده إلا لمن أذن له﴾، ﴿وكم من ملك في السموات﴾ الآية، وقال: ﴿إن كل من في السموات والأرض إلا آتي الرحمن عبداً﴾، فإذا كان الجميع عبداً فلم يعبد بعضهم بعضاً بلا دليل ولا برهان؟ بل بمجرد الرأي والاختراع والابتداع فحق عليهم كلمة العذاب لا محالة، ﴿ولا يظلم ربك أحداً﴾.

﴿أَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَسَالَتْ أَوْدِيَةٌ بِقَدَرِهَا فَاحْتَمَلَ السَّيْلُ زَبَدًا رَابِيًا وَمِمَّا يُوقِدُونَ فِي النَّارِ أَنْبُثَةً حَلِيقَةً أَوْ مَسْجِدًا زَيْدًا يَنْفُلُهُ كَذَلِكَ يَضْرِبُ اللَّهُ الْحَقَّ وَالْبَاطِلَ فَأَمَّا الزَّبَدُ فَيَذْهَبُ جُفَاءً وَأَمَّا مَا يَنْفَعُ النَّاسَ فَيَمْكُثُ فِي الْأَرْضِ كَذَلِكَ يَضْرِبُ اللَّهُ الْأَنْتَازِلَ﴾ (١٧).

اشتملت هذه الآية الكريمة على مثلين مضروبين للحق في ثباته وبقائه، والباطل في اضمحلاله وفنائه، فقال تعالى: ﴿أنزل من السماء ماء﴾ أي مطراً، ﴿فسالت أودية بقدرها﴾ أي أخذ كل واد بحسبه، فهذا كبير وسع كثيراً من الماء، وهذا صغير وسع بقدره، وهو إشارة إلى القلوب وتفاوتها، فمنها ما يسع علماً كثيراً، ومنها من لا يتسع لكثير من العلوم بل يضيق عنها، ﴿فاحتمل السيل زبداً رابياً﴾، أي فجاء على وجه الماء الذي سال في هذه الأودية زيد عال عليه، هذا مثل، وقوله: ﴿ومما يوقدون في النار أنبثة حلية أو متاع﴾ الآية؛ هذا هو المثل الثاني وهو ما يسبك في النار من ذهب أو فضة ﴿انبثة حلية﴾ أي ليجمع حلية أو نحاساً أو حليداً فيجعل متاعاً، فإنه يعلوه زبد منه، كما يعلو ذلك زبد منه، ﴿كذلك يضرب الله الحق والباطل﴾، أي إذا اجتمع لا ثبات للباطل ولا دوام له، كما أن الزبد لا يثبت مع الماء، ولا مع الذهب والفضة مما يسبك في النار، بل يذهب ويضمحل، ولهذا قال: ﴿فأما الزبد فيذهب جفاء﴾ أي لا ينتفع به بل

يتفرق ويتمزق ويذهب في جانبي الوادي، ويعلق بالشجر وتنسف الرياح، وكذلك خُبث الذهب والفضة والحديد والنحاس يذهب ولا يرجع منه شيء ولا يبقى إلا الماء، وذلك الذهب ونحوه يتفع به، ولهذا قال: ﴿وَأَمَّا مَا يَنْفَعُ النَّاسَ فِيمَكْتُ فِي الْأَرْضِ كُلِّكَ يَضْرِبُ اللَّهُ الْأَمْثَالَ﴾، كقوله تعالى: ﴿وَتِلْكَ الْأَمْثَالَ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ وَمَا يَعْقِلُهَا إِلَّا الْعَالَمُونَ﴾. وقال بعض السلف: كنت إذا قرأت مثلاً من القرآن فلم أفهمه بكيت على نفسي لأن الله تعالى يقول: ﴿وَمَا يَعْقِلُهَا إِلَّا الْعَالَمُونَ﴾، قال ابن عباس: هذا مثل ضربه الله احتملت منه القلوب على قدر يقينها وشكها، فأما الشك فلا ينفع معه العمل، وأما اليقين فينفع الله به أهله، وهو قوله: ﴿فَأَمَّا الزُّبَدُ﴾ وهو الشك ﴿فَيَلْهَبُ جُفَاءً وَأَمَّا مَا يَنْفَعُ النَّاسَ فِيمَكْتُ فِي الْأَرْضِ﴾ وهو اليقين، وكما يجعل الحلي في النار فيؤخذ خالصه ويترك خبثه في النار، فكذلك يقبل الله اليقين ويترك الشك. وقال العوفي عن ابن عباس قوله: ﴿أَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَسَالَتْ أَوْدِيَةٌ بِقَدَرِهَا فَاحْتَمَلَ السَّيْلُ زَبَدًا رَابِيًا﴾ يقول: احتمل السيل ما في الوادي من عود ودمنة، ﴿وَمَا يُوَفِّقُونُ عَلَيْهِ فِي النَّارِ﴾ فهو الذهب والفضة والحلية والمتاع والنحاس والحديد، فللنحاس والحديد خُبث، فجعل الله مثل خبثه كزبد الماء، فأما ما ينفع الناس فالذهب والفضة، وأما ما ينفع الأرض فما شربت من الماء فأنبئت فجعل ذلك مثل العمل الصالح يبقى لأهله، والعمل السيئ يضمحل عن أهله، كما يذهب هذا الزبد، وكذلك الهدى والحق، جاءا من عند الله فمن عمل بالحق كان له وبقي كما بقي ما ينفع الناس في الأرض، وكذلك الحديد لا يستطيع أن يعمل منه سكين ولا سيف حتى يدخل في النار فتأكل خبثه ويخرج جوده فيتفع به، فكذلك يضمحل الباطل، فإذا كان يوم القيامة وأقيم الناس وعرضت الأعمال فيزيغ الباطل ويهلك، ويتفع أهل الحق بالحق.

وفي «الصحيحين» عن أبي موسى الأشعري رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: «إن مثل ما بعثني الله به من الهدى والعلم كمثل غيث أصاب أرضاً فكان منها طائفة قبلت الماء فأنبئت الكلا والعشب الكثير، وكانت منها أجادب أمسكت الماء فنفع الله بها الناس فشربوا وروءوا وسقوا وزرعوا، وأصاب طائفة منها أخرى، إنما هي قيعان لا تمسك ماء ولا تنبت كلاً، فذلك مثل من فقه في دين الله ونفعه الله بما بعثني ونفع به فبعلم وعلم، ومثل من لم يرفع بذلك رأساً ولم يقبل هدى الله الذي أرسلت به».

﴿يَلَّذِينَ اسْتَجَابُوا لِرَبِّهِمْ الْحَقِّ وَالَّذِينَ لَمْ يَسْتَجِيبُوا لَهُ لَوْ أَنَّ لَهُمْ مَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا وَمِثْلَهُ مَعَهُ لَافْتَدَوْا بِهِ﴾  
 ﴿أُولَئِكَ لَهُمْ سَوْءُ الْحَسَابِ وَمَأْوَهُمْ جَهَنَّمُ وَبِئْسَ لِلْهَادِثِينَ﴾.

يخبر تعالى عن مآل السعداء والأشقياء: «الَّذِينَ اسْتَجَابُوا لِرَبِّهِمْ» أي أطاعوا الله ورسوله وانقادوا لأوامره وصدقوا أخباره الماضية والآتية، فلهم «الحسن» وهو الجزاء الحسن كقوله تعالى: ﴿وَأَمَّا مَنْ آمَنَ وَعَمِلَ صَالِحًا فَلَهُ جِزَاءُ الْحَسَنِ وَسَنُقُولُ لَهُ مِنْ أَمْرٍ يُسْرًا﴾، وقال تعالى: «الَّذِينَ أَحْسَنُوا الْحَسَنَ وَزِيَادَةً»، وقوله: «وَالَّذِينَ لَمْ يَسْتَجِيبُوا لَهُ» أي لم يطيعوا الله، «لَوْ أَنَّ لَهُمْ مَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا» أي في الدار الآخرة، لو أنه يمكنهم أن يفتدوا من عذاب الله بملء الأرض ذهباً ومثله معه لافتدوا به، ولكن لا يتقبل منهم، لأنه تعالى لا يقبل منهم يوم القيامة صرفاً ولا عدلاً «أُولَئِكَ لَهُمْ سَوْءُ الْحَسَابِ» أي في الدار الآخرة، أي يناقشون على النقيض والقطعير، والجليل والحقير، ومن نوقش الحساب عذب، ولهذا قال: «وَمَا وَاعَهُمْ جَهَنَّمُ وَبِئْسَ الْمِهَادُ».

﴿أَفَنَنْتَ لَهُمْ أَنْزَلَ إِلَهُكَ مِنَ رَبِّكَ أَمْ لَمْ يَكُنْ هُوَ أَمْزَ إِنْ يَذَّكَّرْ أُولَئِكَ الْأَكْبَرُ﴾.

يقول تعالى: لا يستوي من يعلم من الناس أن الذي «أنزل إليك» يا محمد «من ربك» هو الحق الذي لا شك فيه ولا مرية، بل هو كله حق يصدق بعضه بعضاً، فأخياره كلها حق، وأوامره ونواهيها عدل، فلا يستوي من تحقق صدق ما جئت به يا محمد، ومن هو أعمى لا يهتدي إلى خير ولا يفهمه، ولو فهمه ما انقاد له ولا صدقه ولا اتبعه، كقوله تعالى: «لَا يَسْتَوِي أَصْحَابُ النَّارِ وَأَصْحَابُ الْجَنَّةِ»، وقال هنا: «أَفَنَنْتَ لَهُمْ».

يعلم أنما أنزل إليك من ربك الحق كمن هو أعمى ﴿١﴾ أي أفهلذا كهذا؟ لا امتواء. وقوله: ﴿إنما يتذكر أولو الألباب﴾ أي إنما يتعظ ويعتبر أولو العقول السليمة الصحيحة جعلنا الله منهم.

﴿الَّذِينَ يُؤْتُونَ بِعَهْدِ اللَّهِ وَلَا يَنْقُضُونَ الْعَيْثَ﴾ ١٥ ﴿وَالَّذِينَ يَمِيلُونَ مَا أَمَرَ اللَّهُ بِهِمْ أَنْ يُوَصَّلَ وَيَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ وَيَخْلُقُونَ سُوءَ الْحِسَابِ﴾ ١٦ ﴿وَالَّذِينَ صَبَرُوا ابْتِغَاءَ وَجْهِ رَبِّهِمْ وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ وَأَنْفَقُوا مِمَّا رَزَقْنَاهُمْ سِرًّا وَعَلَانِيَةً وَيَدْرُوسُونَ وَالْمَسْكُونَةَ إِلَيْكَ فَلَمْ يَغَيُّ الْقَادِرَ﴾ ١٧ ﴿حَتَّىٰ تَخُوضَ يَحُوتَهَا وَمَنْ صَلَحَ مِنْ آلِهِمْ وَأَزْوَاجِهِمْ وَذُرِّيَّاتِهِمْ وَالْمَلَائِكَةُ يَدْخُلُونَ عَلَيْهِمْ مِنْ كُلِّ بَابٍ﴾ ١٨ ﴿سَلَامٌ عَلَيْهِمْ بِمَا صَبَرُوا فَيَنْعَمُ عَقِبَى الدَّارِ﴾ ١٩ ﴿﴾.

يقول تعالى مخبراً عن انصف بهذه الصفات الحميدة بأن لهم عقبى الدار، وهي العاقبة والنصرة في الدنيا والآخرة ﴿الذين يؤفون بعهد الله ولا ينقضون الميثاق﴾ وليسوا كالمناقضين الذين إذا عاهد أحدهم غدر، وإذا خاصم فجر، وإذا اتمن خان ﴿والذين يصلون ما أمر الله به أن يوصل﴾ من صلة الأرحام والإحسان إليهم وإلى الفقراء والمحاويج وبذل المعروف، ﴿ويخشون ربهم﴾ أي فيما يأتون وما يذرون من الأعمال، يراقبون الله في ذلك ويخافون سوء الحساب في الدار الآخرة، فلهذا أمرهم على السداد والاستقامة في جميع حركاتهم وسكناتهم، ﴿والذين صبروا ابتغاء وجه ربهم﴾ أي عن المحارم والمأثم ففعلوا أنفسهم عنها لله عز وجل ابتغاء مرضاته وجزيل ثوابه، ﴿وأقاموا الصلاة﴾ بحدودها ومراقبتها وركوعها وسجودها وخشوعها على الوجه الشرعي المرضي، ﴿وأنفقوا مما رزقناهم﴾ أي على الذين يجب عليهم الإنفاق لهم، من زوجات وقرابات وأجانب، من فقراء ومحاويج ومساكين، ﴿سراً وعلانية﴾ أي في السر والجهر، لم يمنهم من ذلك حال من الأحوال أثناء الليل وأطراف النهار، ﴿ويدرون بالحسنة السيئة﴾ أي يدعون القبيح بالحسن، فإذا آذاهم أحد قابلوه بالجميل صبراً واحتمالاً وصفحاً وعتواً، كقوله تعالى: ﴿ادفع بالتي هي أحسن فإذا الذي بينك وبينه عداوة كأنه ولي حميم﴾، ولهذا قال مخبراً عن هؤلاء السعداء المتصفين بهذه الصفات الحسنة بأن لهم عقبى الدار، ثم فسر ذلك بقوله: ﴿جنات عدن﴾ والعدن: الإقامة، أي جنات إقامة يخلدون فيها، وقال الضحاك في قوله: ﴿جنات عدن﴾ مدينة الجنة فيها الرسل والأنبياء والشهداء، وأئمة الهدى والناس حولهم بعد والجنات حولها، وقوله: ﴿ومن صلح من آبائهم وأزواجهم وذرياتهم﴾ أي يجمع بينهم وبين أحبائهم فيها من الآباء والأهلين والأبناء ممن هو صالح لدخول الجنة من المؤمنين لتفر أصيبتهم بهم، حتى إنه ترفع درجة الأدنى إلى درجة الأعلى امتناناً من الله، وإحساناً من غير تنقيص للأعلى عن درجته، كما قال تعالى: ﴿والذين آمنوا واتبعتهم ذريتهم بإيمان الحقنا بهم ذريتهم﴾ الآية، وقوله: ﴿والملائكة يدخلون عليهم من كل باب﴾ سلام عليكم بما صبرتم فنعم عقبى الدار ﴿أي وتدخل عليهم الملائكة من ههنا ومن ههنا للتهنئة بدخول الجنة، فعند دخولهم إياها تقد عليهم الملائكة مسلمين مهنيين لهم بما حصل لهم من الله من التقريب والإنعام، والإقامة في دار السلام، في جوار الصديقين والأنبياء والرسل الكرام.

روى الإمام أحمد عن عبد الله بن عمرو بن العاص رضي الله عنهما عن رسول الله ﷺ أنه قال: «هل تدرون أول من يدخل الجنة من خلق الله؟» قالوا: الله ورسوله أعلم، قال: «أول من يدخل الجنة من خلق الله الفقراء والمهاجرون الذين تسد بهم الثغور، وتتقى بهم المكاره ويموت أحدهم وحاجته في صدره لا يستطيع لها قضاء، فيقول الله تعالى لمن يشاء من ملائكته: اتنوهم فحيوهم، فتقول الملائكة: نحن سكان سمائك وخيرتك من خلقك، أفتأمرنا أن نأتي هؤلاء ونسلم عليهم؟ فيقول: إنهم كانوا عباداً يعبدوني لا يشركون بي شيئاً، وتسد بهم الثغور، وتتقى بهم المكاره، ويموت أحدهم وحاجته في صدره لا يستطيع لها قضاء - قال - فتأتيهم الملائكة عند ذلك فيدخلون عليهم من كل باب ﴿سلام عليكم بما صبرتم فنعم عقبى الدار﴾»، ورواه أبو القاسم الطبراني، عن عبد الله بن عمرو عن النبي ﷺ قال: «أول ثلثة يدخلون الجنة فقراء المهاجرين الذين تتقى بهم المكاره، وإذا أمروا سمعوا وأطاعوا، وإن كانت منهم حاجة إلى سلطان لم تقض حتى يموت

وهي في صدره، وإن الله يدعو يوم القيامة الجنة فتأتي بزخرفها وزينتها فيقول: أين عبادي الذين قاتلوا في سبيلي وأوذوا في سبيلي وجاهدوا في سبيلي؟ ادخلوا الجنة بغير عذاب ولا حساب، وتأتي الملائكة فيسجدون ويقولون: ربنا نحن نستبح بحمدك الليل والنهار ونقدس لك، من هؤلاء الذين آثرتهم علينا؟ فيقول الرب عز وجل: هؤلاء عبادي الذين جاهدوا في سبيلي، وأوذوا في سبيلي، فتدخل عليهم الملائكة من كل باب: ﴿سلام عليكم بما صبرتم فنعم عقبى الدار﴾<sup>(١)</sup>، وقد جاء في الحديث أن رسول الله ﷺ كان يزور قبور الشهداء في رأس كل حول فيقول لهم: ﴿سلام عليكم بما صبرتم فنعم عقبى الدار﴾، وكذلك أبو بكر وعمر وعثمان.

﴿وَالَّذِينَ يَمُوتُونَ عَهْدَ اللَّهِ مِنْ بَيْنِ أُمَّةٍ يَشِئْوُهُمْ وَيَقْطَعُونَ مَا أَمَرَ اللَّهُ بِهِ أَنْ يُوصَلَ وَيُفْسِدُونَ فِي الْأَرْضِ أُولَٰئِكَ لَهُمْ الْعَذَابُ وَلَهُمْ الْعَذَابُ الْكَبِيرُ ﴿٢٥﴾﴾.

هذا حال الأشقياء وصفاتهم وذكر مآلهم في الآخرة، ومصيرهم إلى خلاف ما صار إليه المؤمنون، كما أنهم اتصفوا بخلاف صفاتهم في الدنيا فأولئك كانوا يوفون بعهد الله ويصلون ما أمر الله به أن يوصل، وهؤلاء «ينقضون عهد الله من بعد ميثاقه ويقطعون ما أمر الله به أن يوصل ويفسدون في الأرض» كما ثبت في الحديث: «آية المنافق ثلاث إذا حدث كذب، وإذا وعد أخلف، وإذا ائتمن خان»، ولهذا قال: ﴿أولئك لهم العذاب﴾ وهي الإبعاد عن الرحمة ﴿ولهم سوء الدار﴾، وهي سوء العاقبة والمآل ﴿وماوأهم جهنم وبئس المهاد﴾. وقال أبو العالية: هي ست خصال في المنافقين، وإذا كان فيهم الظهرة على الناس أظهروا هذه الخصال: إذا حدثوا كذبوا، وإذا وعدوا أخلفوا، وإذا ائتمنوا خانوا، ونقضوا عهد الله بعد ميثاقه، وقطعوا ما أمر الله به أن يوصل، وأفسدوا في الأرض، وإذا كانت الظهرة عليهم أظهروا الثلاث الخصال: إذا حدثوا كذبوا، وإذا وعدوا أخلفوا، وإذا ائتمنوا خانوا.

﴿اللَّهُ يَسْطُرُ الرِّزْقَ لِمَنْ يَشَاءُ وَيَقْدِرُ وَلَخَرِجَ الْمُتَّقِينَ الَّذِينَ رَمَوْا الْحَيَاةَ الدُّنْيَا بِالْآخِرَةِ ۖ الْأَخِرَةُ أَثَمٌ ﴿٢٦﴾﴾.

يذكر تعالى أنه هو الذي يوسع الرزق على من يشاء ويقدر على من يشاء، لما له في ذلك من الحكمة والعدل، وفرح هؤلاء الكفار بما أوتوا من الحياة الدنيا استدراجاً لهم وإمهالاً كما قال: ﴿أيعصون أنما نمدهم به من مال وبين﴾ نسارع لهم في الخيرات بل لا يشعرون، ثم حقر الحياة الدنيا بالنسبة إلى ما ادخر تعالى لعباده المؤمنين في الدار الآخرة فقال: ﴿وما الحياة الدنيا في الآخرة إلا متاع﴾، كما قال: ﴿قل متاع الدنيا قليل والآخرة خير لمن اتقى ولا تظلمون قليلاً﴾، وقال: ﴿بل تؤثرون الحياة الدنيا﴾ والآخرة خير وأبقى، وقال الإمام أحمد، عن المستورد أخي بني فهر قال: قال رسول الله ﷺ: «ما الدنيا في الآخرة إلا كما يجعل أحدكم أصبعه هذه في اليم فلينظر بم ترجع»، وأشار بالسبابة<sup>(٢)</sup>، وفي الحديث الآخر أن رسول الله ﷺ مر بجدي أسك ميت، والأسك الصغير الأذنين، فقال: «والله للدنيا أهون على الله من هذا على أهله حين القوة»<sup>(٣)</sup>.

﴿وَقُلِ الَّذِينَ كَفَرُوا قُلُوبُهُمْ مُّغْشَاةٌ بِأَيْدِيهِمْ مِنْ رَبِّهِمْ. قُلْ لَيْسَ اللَّهُ بِغَنِيٍّ ۚ إِنَّ اللَّهَ يَخْلُقُ مَنْ يَشَاءُ وَيَسْخَرُ ۚ إِنَّ اللَّهَ يُغْنِي عَنِ الْبَرِّ ﴿٢٧﴾﴾. ﴿وَقُلِ الَّذِينَ كَفَرُوا قُلُوبُهُمْ مُّغْشَاةٌ بِأَيْدِيهِمْ مِنْ رَبِّهِمْ. قُلْ لَيْسَ اللَّهُ بِغَنِيٍّ ۚ إِنَّ اللَّهَ يُغْنِي عَنِ الْبَرِّ ﴿٢٨﴾﴾. ﴿وَقُلِ الَّذِينَ كَفَرُوا قُلُوبُهُمْ مُّغْشَاةٌ بِأَيْدِيهِمْ مِنْ رَبِّهِمْ. قُلْ لَيْسَ اللَّهُ بِغَنِيٍّ ۚ إِنَّ اللَّهَ يُغْنِي عَنِ الْبَرِّ ﴿٢٩﴾﴾.

يخبر تعالى عن المشركين قولهم ﴿لولا﴾ أي هلا، ﴿أنزل عليه آية من ربه﴾، كقولهم: ﴿فليأتنا بآية كما أرسل الأولون﴾ وقد تقدم الكلام على هذا غير مرة، وأن الله قادر على إجابة ما سألوا، ﴿قل إن الله يضل

(١) أخرجه مسلم في صحيحه.

(٢) أخرجه مسلم أيضاً في صحيحه.

من يشاء ويهدي إليه من أناب ﴿ أي هو المضل والهادي، سواء بعث الرسول بآية على وفق ما اقترحوا، أو لم يجبههم إلى سؤالهم، فإن الهداية والإضلال ليس منوطاً بذلك ولا عذمه، كما قال: ﴿وما نقني الآيات والنذر من قوم لا يؤمنون﴾، وقال: ﴿ولو أننا نزلنا إليهم الملائكة وكلمهم الموتى وحشرنا عليهم كل شيء قبلاً ما كانوا ليؤمنوا إلا أن يشاء الله ولكن أكثرهم يجهلون﴾، ولهذا قال: ﴿قل إن الله يضل من يشاء ويهدي إليه من أناب﴾ أي ويهدي إليه من أناب إلى الله، ورجع إليه واستعان به وتضرع لديه، ﴿الذين آمنوا وتطمئن قلوبهم بذكر الله﴾ أي تطيب وتركن إلى جانب الله وتسكن عند ذكره وترضى به مولى ونصيراً ولهذا قال: ﴿ألا بذكر الله تطمئن القلوب﴾ أي هو حقيق بذلك، وقوله: ﴿الذين آمنوا وعملوا الصالحات طوبى لهم وحسن مآب﴾، قال ابن عباس: فرج وقرة عين، وقال عكرمة: نعم ما لهم، وقال الضحاك: غبطة لهم. وقال إبراهيم النخعي: خير لهم، وقال قتادة: يقول الرجل: طوبى لك، أي أصبت خيراً، وقيل: حسنى لهم، ﴿وحسن مآب﴾ أي مرجع، وهذه الأقوال لا منافاة بينها، وروى السدي عن عكرمة: طوبى لهم هي الجنة، وبه قال مجاهد. وروى ابن جرير، عن شهر بن حوشب قال: طوبى شجرة في الجنة كل شجر الجنة منها أغصانها، وهكذا روى غير واحد من السلف أن طوبى شجرة في الجنة في كل دار منها غصن منها، وذكر بعضهم أن الرحمن تبارك وتعالى غرسها بيده من حبة لؤلؤة وأمرها أن تمتد، فامتدت إلى حيث يشاء الله تبارك وتعالى، وخرجت من أصلها ينابيع أنهار الجنة من عسل وخمر وماء ولبن. وروى البخاري ومسلم عن سهل بن سعد رضي الله عنه، أن رسول الله ﷺ قال: «إن في الجنة شجرة يسير الراكب في ظلها مائة عام لا يقطعها»، قال: فحدثت بها النعمان بن أبي عياش الزرقعي فقال: حدثني أبو سعيد الخدري عن النبي ﷺ قال: «إن في الجنة شجرة يسير الراكب الجواد المضمر السريع مائة عام ما يقطعها». وفي «صحيح البخاري» عن أنس رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ في قول الله تعالى: ﴿وظل معلود﴾ قال: «في الجنة شجرة يسير الراكب في ظلها مائة عام لا يقطعها».

﴿كَذَلِكَ أَرْسَلْنَاكَ فِي أُنْقَادٍ مِّن قَبْلِكَ مِّن قَبْلِكَ أُمَّةٍ لِّتَنبَأُوا بِهِمْ أَنَّ إِلَهَ الْكَافِرِينَ قَدْ هَوَىٰ رِيقَ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ مَتَابٌ ﴿٢٢٣﴾﴾.

يقول تعالى: وكما أرسلناك يا محمد في هذه الأمة ﴿لتنبأ عليهم الذي أوحينا إليك﴾ أي تبلغهم رسالة الله إليهم كذلك أرسلنا في الأمم الماضية الكافرة بالله، وقد كذب الرسل من قبلك فلك بهم أسوة، وكما أوقعنا بأسنا ونقمنا بأولئك فليحذر هؤلاء من حلول النقم بهم، قال الله تعالى: ﴿ولقد كذبت رسل من قبلك فصبروا على ما كذبوا وأوذوا حتى أتاهم نصرنا﴾ أي كيف نصرناهم وجعلنا العقاب لهم ولأتباعهم في الدنيا والآخرة، وقوله: ﴿وهم يكفرون بالرحمن﴾ أي هذه الأمة التي بعثناك فيهم يكفرون بالرحمن لا يقرون به، لأنهم كانوا يأنفون من وصف الله بـ «الرحمن الرحيم» ولهذا أنفوا يوم الحديبية أن يكتبوا بسم الله الرحمن الرحيم، وقالوا: ما ندري ما الرحمن الرحيم<sup>(١)</sup>. وفي «صحيح مسلم»: «إن أحب الأسماء إلى الله عبد الله وعبد الرحمن». «قل هو ربي لا إله إلا هو» أي هذا الذي تكفرون به أنا مؤمن به معترف مقر له بالربوبية والإلهية، هو ربي لا إله إلا هو «عليه توكلت» أي في جميع أموري، «وإليه متاب» أي إليه أرجع وأنيب فإنه لا يستحق ذلك أحد سواه.

﴿وَلَوْ أَنَّ قَوْمًا شَرَّتْ بِكَ الْجِبَالُ أَوْ قَطِيعَتٌ مِّنَ الْأَرْضِ أَوْ كُلُّ مِمَّا فِي السَّمَوَاتِ بِإِذْنِ اللَّهِ الْآمِرُ جَمِيعًا أَفَلَمْ يَأْتِ الْبَاقِينَ الَّذِينَ آمَنُوا أَن لَّوْ شَاءَ اللَّهُ لَهَدَى النَّاسَ جَمِيعًا وَلَا يَزَالُ الَّذِينَ كَفَرُوا تُصِيبُهُم بِمَا صَنَعُوا قَارِعَةٌ أَوْ تَحُلُّ قَرِيبًا مِّن دَارِهِمْ حَتَّى يَأْتِيَ وَعْدَ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ لَا يُخْلِفُ الْوَعْدَ ﴿٢٢٤﴾﴾.

(١) قاله قتادة، والحديث في صحيح البخاري.

يقول تعالى مادحاً للقرآن الذي أنزله على محمد ﷺ ومنفضاً له على سائر الكتب المنزلة قبله: ﴿ولو أن قرآناً سيرت به الجبال﴾ أي لو كان في الكتب الماضية كتاب تسير به الجبال عن أماكنها، أو تقطع به الأرض وتنشق، أو تكلم به الموتى في قبورها، لكان هذا القرآن هو المتصف بذلك دون غيره، أو بطريق الأولى أن يكون كذلك لما فيه من الإعجاز الذي لا يستطيع الإنسان والجن عن آخرهم إذا اجتمعوا أن يأتوا بمثله ولا بسورة من مثله، ومع هذا فهؤلاء المشركون كافرون به جاحدون له، ﴿بل الله الأمر جميعاً﴾ أي مرجع الأمور كلها إلى الله عز وجل ما شاء كان، وما لم يشأ لم يكن، وقد يطلق اسم القرآن على كل من الكتب المتقدمة لأنه مشتق من الجمع، وفي الحديث الصحيح: قال رسول الله ﷺ: «خفف على داود القرآن، فكان يأمر بدابته أن تسرج، فكان يقرأ القرآن من قبل أن تسرج دابته، وكان لا يأكل إلا من عمل يديه»<sup>(١)</sup>، والمراد بالقرآن هو الزبور. وقوله: ﴿أفلم ييأس الذين آمنوا﴾ أي من إيمان جميع الخلق ويعلموا أو يتبينوا ﴿أن لو يشاء الله لهدى الناس جميعاً﴾ فإنه ليس ثم حجة ولا معجزة أبلغ ولا أنجع في العقول والنفوس، من هذا القرآن الذي لو أنزله الله عز وجل على جبل لرآته خاشعاً متصدعاً من خشية الله، وثبت في «الصحيح» أن رسول الله ﷺ قال: «ما من نبي إلا وقد أوتي ما آمن على مثله البشر، وإنما كان الذي أوتيته وحياً أوحاه الله إليّ، فأرجو أن أكون أكثرهم تابعاً يوم القيامة» معناه أن معجزة كل نبي انقرضت بموته وهذا القرآن حجة باقية على الأبد لا تنقضي عجائبه، ولا يخلق عن كثرة الرد، ولا يشبع منه العلماء.

وروي أن المشركين قالوا لمحمد ﷺ: لو سيرت لنا جبال مكة حتى تسع فحرت فيها، أو قطعت لنا الأرض كما كان سليمان يقطع لقومه بالريح، أو أحيت لنا الموتى كما كان عيسى يحيي الموتى لقومه، فأنزل الله هذه الآية: ﴿ولو أن قرآناً سيرت به الجبال﴾<sup>(٢)</sup>، وقال قتادة: لو فعل هذا بقرآن غير قرآنكم لفعل بقرآنكم. وقوله: ﴿بل الله الأمر جميعاً﴾ قال ابن عباس: أي لا يصنع من ذلك إلا ما شاء ولم يكن ليفعل. وقال غير واحد من السلف في قوله: ﴿أفلم ييأس الذين آمنوا﴾ أفلم يعلم الذين آمنوا، وقوله: ﴿ولا يزال الذين كفروا تصيبهم بما صنعوا قارعة أو تحل قريبا من دارهم﴾ أي بسبب تكذيبهم لا تزال القوارع تصيبهم في الدنيا أو تصيب من حولهم ليتعظوا ويعتبروا، كما قال تعالى: ﴿أفلا يرون أنا نأتي الأرض ننقصها من أطرافها أفهم الغالبون﴾. قال الحسن: ﴿أو تحل قريبا من دارهم﴾: أي القارعة، وهذا هو الظاهر من السياق، وقال العوفي عن ابن عباس: ﴿تصيبهم بما صنعوا قارعة﴾ قال: عذاب من السماء ينزل عليهم، ﴿أو تحل قريبا من دارهم﴾ يعني نزول رسول الله ﷺ بهم وقتاله إياهم؛ وقال عكرمة في رواية عنه ﴿قارعة﴾: أي نكبة، ﴿حتى ياتي وعد الله﴾ يعني فتح مكة، وقال الحسن البصري: يوم القيامة، وقوله: ﴿إن الله لا يخلف الوعد﴾ أي لا ينقض وعده لرسله بالنصرة لهم ولأتباعهم في الدنيا والآخرة: ﴿فلا تحسبن الله مخلف وعده رسله إن الله عزيز ذو انتقام﴾.

﴿وَلَقَدْ أَشْهَرْتُ بِرُسُلِي مِنْ قَبْلِكَ فَأَمَلَيْتُ لِلَّذِينَ كَفَرُوا ثَمًّا أَخَذْتُهُمْ فَكَيْفَ كَانَ عِقَابِ﴾<sup>(٣)</sup>.

يقول تعالى مسلياً لرسوله ﷺ في تكذيب من كذبه من قومه: ﴿ولقد استهزىء برسول من قبلك﴾ أي فلك فيهم أسوة، ﴿فأمليت للذين كفروا﴾ أي أنظرتهم وأجلتهم، ﴿ثم أخذتهم﴾ أي أخذت راية فكيف بلغنا ما صنعت بهم وكيف كان عقابي لهم؟ كما قال تعالى: ﴿وكأين من قرية أمليت لها وهي ظالمة ثم أخذتها وإلي المصير﴾. وفي «الصحيحين»: «إن الله ليملي للظالم حتى إذا أخذه لم يفلته»، ثم قرأ رسول الله ﷺ: ﴿وكذلك أخذ ربك إذا أخذ القرى وهي ظالمة إن أخذه أليم شديد﴾.

(١) أخرجه البخاري وأحمد عن أبي هريرة.

(٢) رواه ابن أبي حاتم، وبه قال ابن عباس والشعبي وفتادة وغير واحد في سبب نزول هذه الآية.

﴿أَفَنَنْتَ هُوَ قَائِمٌ عَلَى كُلِّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ وَجَعَلُوا لِلَّهِ شُرَكَاءَ قُلْ سُبُّهُمْ أَمْ يَكُونُ لَكُمْ يَدَايَ لَا يَبْلُغُنَّ إِلَى الْأَرْضِ أَمْ يُبْلِغُونَ إِلَى السَّمَاءِ ثُمَّ يَرْجِعُونَ فِي آثَانِ اللَّهِ﴾ **الْقَوْلُ لِلزَّيْنِ لِلَّذِينَ كَفَرُوا مَكْرَهُمْ وَصَدُّوا عَنِ السَّبِيلِ وَمَنْ يَتَّبِعِ اللَّهَ فَمَا لَهُ مِنْ يَمِينٍ وَلَا شِمَالٍ** ﴿١٣٢﴾ .

يقول تعالى: ﴿أفمن هو قائم على كل نفس بما كسبت﴾ أي حفيظ عليم رقيب على كل نفس متفهمة يعلم ما يعمل العاملون من خير وشر ولا يخفى عليه خافية ﴿ولا تعملون من عمل إلا كنا عليكم شهوداً إذ تفيضون فيه﴾ ، وقال تعالى: ﴿وما تسقط من ورقة إلا يعلمها﴾ ، وقال: ﴿سواء منكم من أسر القول ومن جهر به ومن هو مستخف بالليل وسارٍ بالنهار﴾ ، وقال: ﴿يعلم السر وأخفى﴾ ، وقال: ﴿وهو معكم أين ما كنتم والله بما تعملون بصير﴾ ، أفمن هو كذلك كالأصنام التي يعبدونها لا تسمع ولا تبصر ولا تعقل ولا تكشف سرّاً عنها ولا عن عابديها؟ وحذف هذا الجواب اكتفاء بدلالة السياق عليه، وهو قوله: ﴿وجعلوا لله شركاء﴾ أي عبدوها معه من أصنام وأنداد وأوثان، ﴿قل سموهم﴾ أي أعلمونا بهم واكشفوا عنهم حتى يعرفوا فإنهم لا حقيقة لهم، ولهذا قال: ﴿أم تشعرون بما لا يعلم في الأرض﴾ أي لا وجود له، لأنه لو كان لها وجود في الأرض لعلمها، لأنه لا تخفى عليه خافية ﴿أم بظاهر من القول﴾ ، قال مجاهد: بظن من القول، وقال الضحاك وقتادة: بباطل من القول، أي إنما عيّدتم هذه الأصنام بظن منكم أنها تنفع وتضر وسميتوها آلهة، ﴿إن هي إلا أسماء سميتموها أنتم وآباؤكم ما أنزل الله بها من سلطان﴾ ، ﴿بل زين للذين كفروا مكرهم﴾ قال مجاهد: قولهم أي ما هم عليه من الضلال والدعوة إليه أثناء الليل وأطراف النهار، كقوله تعالى: ﴿وقضينا لهم قرءاناً فزيتوا لهم﴾ الآية، ﴿وصدوا عن السبيل﴾ أي بما زين لهم من صحة ما هم عليه صدوا به عن سبيل الله، ولهذا قال: ﴿ومن يضلل الله فما له من هادٍ﴾ ، كما قال: ﴿ومن يرد الله فنته قلن تملك له من الله شيئاً﴾ ، وقال: ﴿إن تحرص على هداهم فإن الله لا يهدي من يضل وما لهم من ناصرين﴾ .

﴿لَهُمْ عَذَابٌ فِي الْحُزْنِ وَقَدْ كَفَرُوا بِالْآخِرَةِ أَشَقُّ وَمَا لَهُمْ مِنَ اللَّهِ مِن وَاقٍ﴾ ﴿١٣٣﴾ **تَنَزَّلُ الْجَنَّةُ إِلَى رُءُوسِ الْمَتَّقِينَ** **تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ أَكْلُهَا دَائِمٌ وَظِلُّهَا تِلْكَ عُقْبَى الَّذِينَ اتَّقَوْا وَعُقْبَى الْكَافِرِينَ النَّارُ** ﴿١٣٤﴾ .

ذكر تعالى عقاب الكفار وثواب الأبرار، فقال بعد إخباره عن حال المشركين وما هم عليه من الكفر والشرك: ﴿لهم عذاب في الحياة الدنيا﴾ أي بأيدي المؤمنين قتلاً وأسراً، ﴿ولعذاب الآخرة﴾ أي المدخر مع هذا الخزي في الدنيا ﴿أشق﴾ أي من هذا بكثير كما قال رسول الله ﷺ للمتلاعنين: «إن عذاب الدنيا أهون من عذاب الآخرة»، وهو كما قال صلوات الله وسلامه عليه: «فإن عذاب الدنيا له انقضاء، وذلك دائم أبداً في نار هي بالنسبة إلى هذه سجون ضعفاً، ووثاق لا يتصور كثافته وشدة»، كما قال تعالى: ﴿فيومئذ لا يعذب عذابه أحد ولا يوثق وثاقه أحد﴾ ، وقال تعالى: ﴿وأعدنا لمن كذب بالساعة سعيراً﴾ إذا رأتهم من مكان بعيد سمعوا لها تغيظاً وزفيراً. ولهذا قرن هذا بقوله: ﴿مثل الجنة التي وعد المتقون﴾ أي صفتها ونعتها ﴿تجري من تحتها الأنهار﴾ أي سارحة في أرجائها وجوانبها، وحيث شاء أهلها يقجرونها تفجيراً، أي يصرفونها كيف شاءوا وأين شاءوا، كقوله: ﴿مثل الجنة التي وعد المتقون فيها أنهار من ماء غير آسن﴾ الآية. وقوله: ﴿أكلها دائم وظلها﴾ أي فيها الفواكه والمطاعم والمشارب لا انقطاع ولا فناء. وفي «الصحاحين» من حديث ابن عباس في صلاة الكسوف، وفيه قالوا: يا رسول الله رأيناك تناولت شيئاً في مقامك هذا ثم رأيناك تكعكت، فقال: «إني رأيت الجنة - أو أريت الجنة - فتناولت منها عتقوداً، ولو أخذته لأكلتم منه ما بقيت الدنيا». وقال الحافظ أبو يعلى، عن جابر قال: بينما نحن في صلاة الظهر، إذ تقدم رسول الله ﷺ فتقدمنا، ثم تناول شيئاً ليأخذه ثم تأخر، فلما قضى الصلاة قال له أبي بن كعب: يا رسول الله صنعت اليوم في الصلاة شيئاً ما رأيناك كنت تصنعه، فقال: «إني عرضت علي الجنة وما فيها من الزهرة والنضرة فتناولت منها قطعاً من عنب لآتيكم به فحبل بيني وبينه ولرأتكم به لأكل منه من بين السماء والأرض لا ينقصونه» .

وروى الإمام أحمد والنسائي عن زيد بن أرقم قال: جاء رجل من أهل الكتاب فقال: يا أبا القاسم،

تزعم أن أهل الجنة يأكلون ويشربون؟ قال: «نعم»، والذي نفس محمد بيده إن الرجل منهم ليعطى قوة مائة رجل في الأكل والشرب والجماع والشهوة»، قال: إن الذي يأكل ويشرب تكون له الحاجة وليس في الجنة الأذى، قال: «تكون حاجة أحدهم رشحاً يفيض من جلودهم كريح المسك فيضمر بطنه»، وعن عبد الله بن مسعود رضي الله عنه قال: قال لي رسول الله ﷺ: «إنك لتنتظر إلى الطير في الجنة فيخرب بين يديك مشوياً»، وجاء في بعض الأحاديث أنه إذا فرغ منه عاد طائراً كما كان بإذن الله تعالى، وقد قال الله تعالى: ﴿وَفَاكِهَةٍ كَثِيرَةٍ ۖ لَا مَقْطُوعَةٍ وَلَا مَمْنُوعَةٍ﴾، وقال: ﴿وَدَانِيَةٍ عَلَيْهِمْ ظِلَالُهَا وَظِلُّهَا تَرْبُوْنَ﴾، وكذلك ظلها لا يزول ولا يقلص كما قال تعالى: ﴿لَهُمْ فِيهَا أَزْوَاجٌ مُّطَهَّرَةٌ وَتُدْخِلُهُمْ ظِلًّا ظَلِيلًا﴾. وقد تقدم في «الصحيحين» من غير وجه أن رسول الله ﷺ قال: «إن في الجنة شجرة يسير الراكب المجد الجواد المضمر السريع في ظلها مائة عام لا يقطعها» ثم قرأ: ﴿وُظِلُّ مَعْدُودٍ﴾ وكثيراً ما يقرن الله تعالى بين صفة الجنة وصفة النار ليرغب في الجنة ويحذر من النار؛ ولهذا لما ذكر صفة الجنة بما ذكر قال بعده: ﴿فَلْيَكْفُرْ الْكَافِرِينَ﴾، كما قال تعالى: ﴿لَا يَسْتَوِي أَصْحَابُ النَّارِ وَأَصْحَابُ الْجَنَّةِ أَصْحَابُ الْجَنَّةِ هُمُ الْفَائِزُونَ﴾.

﴿وَالَّذِينَ آمَنَتْهُمْ أَكْتَبَ بِقُرْءَانٍ مَّا أُنْزِلَ إِلَيْكَ وَمِنَ الْأَحْزَابِ مَنْ يُنْكِرُ بَعْضَهُ قُلْ إِنَّمَا أَعِذُّ لَكُمْ مِنْ أَنْ تُشْرِكُوا بِهِ إِلَهًا أَدْعُوا إِلَهَهُمْ وَإِلَهُ الْبَنَاتِ وَمَنْ آمَنَ مِنْكُمْ لَيْسَ عَلَيْهِ جُنَاحٌ مِنْ شَيْءٍ﴾  
 ﴿وَلَا وَاقٍ﴾.

يقول تعالى: ﴿وَالَّذِينَ آمَنَتْهُمْ أَكْتَبَ﴾ وهم فائزون بمقتضاء ﴿وَقُرْءَانٍ مَّا أُنْزِلَ إِلَيْكَ﴾ أي من القرآن لما في كتبهم من الشواهد على صدقه والبشارة، كما قال الله تعالى: ﴿قُلْ آمَنُوا بِهِ أَوْ لَا تُؤْمِنُوا﴾ إلى قوله ﴿إِنْ كَانَ وَعْدُ رَبِّنَا لَمَفْعُولًا﴾ أي إن كان ما وعدنا الله به في كتبنا من إرسال محمد ﷺ لحقاً وصدقاً مفعولاً لا محالة وكائنًا. وقوله: ﴿وَمِنَ الْأَحْزَابِ مَنْ يُنْكِرُ بَعْضَهُ﴾ أي ومن الطوائف من يكذب بعض ما أنزل إليك، وقال مجاهد ﴿وَمِنَ الْأَحْزَابِ﴾: أي اليهود والنصارى ﴿مَنْ يُنْكِرُ بَعْضَهُ﴾ أي بعض ما جاءك من الحق، وهذا كما قال تعالى: ﴿وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ الْكِتَابِ لَمَنِ يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ﴾، ﴿قُلْ إِنَّمَا أَمْرُهُ أَنْ أُعْبَدَ اللَّهُ وَلَا أُشْرَكَ بِهِ﴾، أي إنما بعثت بعبادة الله وحده لا شريك له، كما أرسل الأنبياء من قبلي، ﴿إِلَيْهِ أَدْعُو﴾ أي إلى سبيله أَدْعُو الناس، ﴿إِلَيْهِ مَأْبٍ﴾ أي مرجعي ومصيري، وقوله: ﴿وَكَذَلِكَ أُنْزِلَتْ حُكْمًا عَرَبِيًّا﴾ أي وكما أرسلنا قبلك المرسلين وأنزلنا عليهم الكتب من السماء، كذلك أنزلنا عليك القرآن محكمًا عربياً شرفناك به وفضلناك على من سواك بهذا الكتاب المبين الواضح الجلي، الذي ﴿لَا يَأْتِيهِ الْبَاطِلُ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَلَا مِنْ خَلْفِهِ تَنْزِيلٌ مِنْ حَكِيمٍ حَمِيدٍ﴾. وقوله: ﴿وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ الْكِتَابِ لَمَنِ يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ﴾، أي أَرَاهُمْ ﴿بَعْدَ مَا جَاءَكَ مِنَ الْعِلْمِ﴾ أي من الله سبحانه، ﴿فَمَا لَكَ مِنَ اللَّهِ مِنْ وَلِيٍّ وَلَا وَاقٍ﴾، وهذا وعيد لأهل العلم أن يتبعوا سبيل أهل الضلالة بعدما صاروا إليه من سلوك السنة النبوية، والمحنة المحمدية على من جاء بها أفضل الصلاة والسلام.

﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلًا مِنْ قَبْلِكَ وَجَعَلْنَا لَهُمْ أَزْوَاجًا وَذُرِيَّةً وَمَا كَانَ لِرَسُولٍ أَنْ يَقُولَ إِنَّا بِآيَةِ اللَّهِ يَكْفُرُ لِكُلِّ أَجَلٍ كِتَابٍ﴾  
 ﴿يَتَحَوَّلُ اللَّهُ مَا يَشَاءُ وَيُخَيِّرُ وَنَحْنُ أَعْلَمُ بِمَا نَكْتُبُ﴾.

يقول تعالى: ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلًا مِنْ قَبْلِكَ وَجَعَلْنَا لَهُمْ أَزْوَاجًا وَذُرِيَّةً﴾، وكذلك قد بعثنا المرسلين قبلك بشراً يأكلون الطعام، ويمشون في الأسواق، ويأتون الزوجات، ويولد لهم، وجعلنا لهم أزواجاً وذرية، وقد قال تعالى لأشرف الرسل وخاتمهم: ﴿قُلْ إِنَّمَا أَنَا بَشَرٌ مِثْلُكُمْ يُوحَى إِلَيَّ﴾، وفي «الصحيحين» أن رسول الله ﷺ قال: «أما أنا فأصوم وأفطر وأقوم وأنام، وأكل اللحم، وأزواج النساء، فمن رغب عن سنتي فليس مني». وقوله: ﴿وَمَا كَانَ لِرَسُولٍ أَنْ يَقُولَ إِنَّا بِآيَةِ اللَّهِ يَكْفُرُ﴾ أي لم يكن يأتي قومه بخارق، إلا إذا أذن له فيه، ليس ذلك إليه بل إلى الله عز وجل، يفعل ما يشاء ويحكم ما يريد، ﴿لِكُلِّ أَجَلٍ كِتَابٌ﴾ أي لكل مدة مضمونة كتاب مكتوب بها وكل شيء عنده بمقدار، ﴿إِنَّمَا تَعْلَمُ أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ إِنَّ ذَلِكَ فِي كِتَابٍ﴾ إن ذلك على

الله يسير». وكان الضحاك يقول: ﴿لكل أجل كتاب﴾: أي لكل كتاب أجل، يعني لكل كتاب أنزل من السماء مدة مضروبة عند الله ومقدار معين، فلهذا ﴿يمحو الله ما يشاء﴾ منها ﴿ويثبت﴾ يعني حتى نسخت كلها بالقرآن الذي أنزله الله على رسوله صلوات الله وسلامه عليه، وقوله: ﴿يمحو الله ما يشاء ويثبت﴾ اختلف المفسرون في ذلك: فقال الثوري، عن ابن عباس: يدبر أمر السنة، فيمحو الله ما يشاء، إلا الشقاء والسعادة والحياة والموت. وفي رواية ﴿يمحو الله ويثبت﴾ قال: كل شيء إلا الموت والحياة والشقاء والسعادة، فإنه قد فرغ منهما<sup>(١)</sup>، وقال منصور: سألت مجاهداً فقلت: أرايت دعاء أحدنا، يقول: اللهم إن كان اسمي في السعداء فأثبتته فيهم، وإن كان في الأشقياء فامحه عنهم، واجعله في السعداء، فقال: حسن؛ ثم لقيته بعد ذلك بحول أو أكثر فسألته عن ذلك، فقال: ﴿إنا أنزلناه في ليلة مباركة﴾ الآية، قال: يقضى في ليلة القدر ما يكون في السنة من رزق أو معصية، ثم يقدم ما يشاء ويؤخر ما يشاء، فأما كتاب السعادة والشقاوة فهو ثابت لا يغير، وقال الأعمش عن أبي رائل: إنه كان كثيراً يدعو بهذا الدعاء: اللهم إن كنت كتبنا أشقياء فامحه، واكتبنا سعداء، وإن كنت كتبنا سعداء فأثبتنا، فإنك تمحو ما تشاء وتثبت وعندك أم الكتاب<sup>(٢)</sup>. وقال ابن جرير، عن أبي عثمان النهدي أن عمر بن الخطاب رضي الله عنه قال وهو يطوف بالبيت ويبيكي: اللهم إن كنت كتبت علي شقوة أو ذنباً فامحه، فإنك تمحو ما تشاء وتثبت وعندك أم الكتاب، فاجعله سعادة ومغفرة.

ومعنى هذه الأقوال أن الأقدار يتسخ الله ما يشاء منها ويثبت منها ما يشاء، وقد يستأنس لهذا القول بما رواه الإمام أحمد، عن ثوبان قال: قال رسول الله ﷺ: «إن الرجل ليحرم الرزق بالذنب يصيبه، ولا يرد القدر إلا الدعاء، ولا يزيد في العمر إلا البر»<sup>(٣)</sup> وثبت في «الصحيح» أن صلة الرحم يزيد في العمر، وفي حديث آخر: «إن الدعاء والقضاء ليعتلجان بين السماء والأرض». وقال الكلبي: يمحو من الرزق ويزيد فيه، ويمحو من الأجل ويزيد فيه، وقال العوفي عن ابن عباس: هو الرجل يعمل الزمان بطاعة الله، ثم يعود لمعصية الله فيموت على ضلالة، فهو الذي يمحو، والذي يثبت الرجل يعمل بمعصية الله وقد كان سبق له خير حتى يموت وهو في طاعة الله وهو الذي يثبت. وقال علي بن أبي طلحة، عن ابن عباس: ﴿يمحو الله ما يشاء ويثبت﴾ يقول: يبدل ما يشاء فينسخه، ويثبت ما يشاء فلا يبدله ﴿وعنده أم الكتاب﴾، وجملة ذلك عنده في أم الكتاب النامخ وما يبدل وما يثبت كل ذلك في كتاب، وقال مجاهد: قالت كفار قريش لما نزلت ﴿وما كان لرسول أن يأتي بآية إلا بإذن الله﴾: ما نرى محمداً يملك شيئاً وقد فرغ من الأمر، فأنزلت هذه الآية تخويفاً ووعداً لهم: إنا إن شئنا أحدثنا له من أمرنا ما شئنا، وتحدث في كل رمضان، فيمحو ما يشاء ويثبت ما يشاء من أرزاق الناس ومصائبهم وما يعطيهم وما يقسم لهم. وقال الحسن البصري ﴿يمحو الله ما يشاء ويثبت﴾ قال: من جاء أجله يذهب ويثبت الذي هو حي يجري إلى أجله، وقد اختار هذا القول أبو جعفر بن جرير رحمه الله، وقوله: ﴿وعنده أم الكتاب﴾ قال: الحلال والحرام، وقال قتادة: أي جملة الكتاب وأصله، وقال ابن جرير عن ابن عباس: ﴿وعنده أم الكتاب﴾ قال: الذكر.

﴿وَإِنْ مَّا نُرِيَنَّكَ بَعْضَ الَّذِي نَعِدُهُمْ أَوْ نَتَوَقَّعُكَ فَإِنَّمَا عَلَيْكَ الْكَلِمَ وَعَلَيْنَا الْحِسَابُ ۖ ﴿١٤﴾ أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّا نَأْتِي الْأَرْضَ نَنْفُخُ مِنْ أَمْزَاقٍهَا وَآلَهُ يَحْكُمُ لَا مُعَقِّبَ لِحُكْمِهِ، وَهُوَ سَرِيعُ الْحِسَابِ ۖ ﴿١٥﴾﴾.

يقول تعالى لرسوله: ﴿وإما نرينك﴾ يا محمد بعض الذي نعد أعداءك من المخزي والنيكال في الدنيا،

(١) وهذا قول مجاهد أيضاً حيث قال: إلا الحياة والموت والشقاوة والسعادة فإنهما لا يتغيران.

(٢) أخرجه ابن جرير.

(٣) رواه أحمد والنسائي وابن ماجه.

﴿أَوْ تُوفِّيْتُمْ﴾ أي قبل ذلك ﴿فَإِنَّمَا عَلَيْكَ الْبَلَاغُ﴾ أي إنما أرسلناك لتبلغهم رسالة الله وقد فعلت ما أمرت به ﴿وَعَلَيْتُمُ الْحِسَابَ﴾ أي حسابهم وجزاءهم كقوله تعالى: ﴿إِن إِلَيْنَا يَأْتِيهِمْ﴾ ثم إن علينا حسابهم. وقوله: ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّا نَأْتِي الْأَرْضَ نَنْقُصُهَا مِنْ أَطْرَافِهَا﴾ قال ابن عباس: أولم يروا أننا نفتح لمحمد ﷺ الأرض بعد الأرض، وقال مجاهد وعكرمة: ﴿نَنْقُصُهَا مِنْ أَطْرَافِهَا﴾ قال: خرابها، وقال الحسن والضحاك: هو ظهور المسلمين على المشركين، وقال مجاهد: نقصان الأنفس والشمرات وخراب الأرض، وقال الشعبي: لو كانت الأرض تنقص لضاق عليك حشك<sup>(١)</sup>، ولكن تنقص الأنفس والشمرات، وقال ابن عباس في رواية: خرابها بموت علمائها وفقهاءها وأهل الخير منها. وكذا قال مجاهد أيضاً: هو موت العلماء، وأنشد أحمد بن غزال:

الأرض تحيا إذا ما عاش عالمها  
منى يمت عالم منها يمت طرف  
كالأرض تحيا إذا ما الغيث حل بها  
وإن أبى عاد في أكنافها التلطف

والقول الأول أولى، وهو ظهور الإسلام على الشرك قرية بعد قرية، كقوله: ﴿وَلَقَدْ أَهْلَكْنَا مَا حولَكُم مِّنَ الْقَرْيِ كُلِّهَا﴾، وهذا اختيار ابن جرير.

﴿وَلَقَدْ مَكَرَ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ فَلِلَّهِ الْمَكْرُ جَمِيعًا بِمَلَأُوا مَا تَكْنِيثُ كُلِّ نَفْسٍ وَمِنْ مَكْرِهِ الْكُفْرُ لِمَن عَفَى الدَّارِ﴾.

يقول تعالى: ﴿وَلَقَدْ مَكَرَ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ﴾ برسلمهم وأرادوا إخراجهم من بلادهم فمكر الله بهم وجعل العقابة للمتقين كقوله: ﴿وَإِذْ يَمْكُرُ بِكَ الَّذِينَ الَّذِينَ كَفَرُوا﴾ الآية، وقوله تعالى: ﴿وَمَكُرُوا مَكْرًا وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ﴾ وقوله: ﴿يَعْلَمُ مَا تَكْسِبُ كُلُّ نَفْسٍ﴾ أي أنه تعالى عالم بجميع السرائر والضمائر وسيجزي كل عامل بعمله، ﴿وَيَسْجَلُ الْمُكْفَارُ لِمَن عَفَى الدَّارِ﴾ أي لمن تكون الدائرة والعاقبة لهم أو لأتباع الرسل، كلا، بل هي لأتباع الرسل في الدنيا والآخرة والله الحمد والمنة.

﴿وَيَقُولُ الَّذِينَ كَفَرُوا أَأَنتَ مُرْسَلٌ قُلْ كَفَىٰ بِاللَّهِ شَهِيدًا بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ وَمَنْ عِندَهُ عِلْمُ الْكِتَابِ﴾.

يقول تعالى: يكذبك هؤلاء الكفار ويقولون: ﴿هست مرسلًا﴾ أي ما أرسلك الله، ﴿قُلْ كَفَىٰ بِاللَّهِ شَهِيدًا بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ﴾ أي حسبي الله هو الشاهد علي وعليكم، شاهد علي فيما بلغت عنه من الرسالة، وشاهد عليكم أيها المكذبون فيما تفترونه من البهتان، وقوله: ﴿وَمَنْ عِندَهُ عِلْمُ الْكِتَابِ﴾ قيل: نزلت في عبد الله بن سلام، وهذا القول غريب، لأن هذه الآية مكية، وعبد الله بن سلام إنما أسلم في أول مقدم النبي ﷺ المدينة، والأظهر في هذا ما قاله ابن عباس: هم من اليهود والنصارى، وهو يشمل علماء أهل الكتاب الذين يجدون صفة محمد ﷺ ونعته في كتبهم المتقدمة من بشارات الأنبياء به، كما قال تعالى: ﴿الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ الرَّسُولَ النَّبِيَّ الْأُمِّيَّ الَّذِي يَجِدُونَهُ مَكْتُوبًا عِنْدَهُمْ فِي التَّوْرَةِ وَالْإِنْجِيلِ﴾ الآية، وقال تعالى: ﴿أَوَلَمْ يَكُن لَّهُمْ آيَةٌ أَن يَعْلَمَهُ عُلَمَاءُ بَنِي إِسْرَائِيلَ﴾، وأمثال ذلك مما فيه الإخبار عن علماء بني إسرائيل أنهم يعلمون ذلك من كتبهم المنزلة.

[تَمَّ تَفْسِيرُ سُورَةِ الرَّعْدِ، وَاللهُ الْحَمْدُ وَالْمُنَّةُ]

(١) الحُشُّ والجش: البستان، قال في القاموس: الحُشُّ مثلثة: المخرج لأنهم كانوا يقضون حوائجهم في البساتين.